﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ [المائدة: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــط بـين مأمور الله لأهل الإنجيل، وبين القرآن المهيمن الجليل

لَمَّا أمر الله تعالى في الآية السَّابقة أهلَ الإنجيل بالحكم بما فيه جاءَ بيان الله في هذه الآية الكريمة، يأمرُ رسولَ الله ﷺ بالحكم بما أنزله الله تعالى عليه في القرآن الكريم الَّذي جعلَه مُصدِّقًا للكتب السَّابقة عليه، وغالبًا عليها، إذ نسخَت شريعتُه جميعَ شرائعِ الكتب الَّتي قبله، وهذه الآية تتمّم السّياق؛ ببيان ما أنزل الله قبلُ من كتب، جعلها هدى ونورًا، وألزم بني إسرائيل بإقامتها، وتوعّدهم بالعقاب والعذاب حالة ترك الحكم بها، فناسب أن يذكر إنزاله القرآن على سيّد ولد عدنان، وقد جعل له مكانة بين الكتب السّابقة، وجعل تلاحق الكتب، وتوالي الشّرائع، كالمقدّمات والنّتائج[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

هيمنة القرآن عـــلى الـكـتـب الأخرى أن يشهد بصدقها، وإلّا فلا مصداقيّة لها

1) ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾: هَيمَنَ: قال: آمين، كأَمَّنَ. والطَّائر على فراخه: رَفرَفَ، وعلى كذا: صار رقيبًا عليه وحافظًا. والمُهَيمِنُ: وتُفتحُ الميم الثَّانية: من أسماء الله تعالى في معنى المؤمن، مَن آمَنَ غيرَه منَ الخوف، أو بمعنى: الأمينُ، أو المُؤتَمَنُ، أو الشَّاهد[2]، وعلى هذا يكون

(1) رضا، تفسير المنار: 6/339.

(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (هيمن).

الكتاب الَّذي ورد ذكرُه في الآية الكريمة – وهو القرآن الكريم – رقيبًا وأمينًا ومُؤتَمنًا وشاهدًا على الكتب السَّابقة له، وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يُقال للرّجل إذا حفظ الشّيء وشَهِدَه: (قد هَيمَنَ، يُهَيمِنُ هَيمَنَةً). قال ابن عبّاس: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾، أي: شهيداً عليه، وهو قول السّدّي.. وقال المبرّد: الأصل (مُؤَيمن)، ثمّ أُبدِل منَ الهمزة هاء[1]، كما قالوا: أرقت الماء وهرقته، وإيهات وهيهات، ونحوها[2]. وقال جماعة من أهل اللّغة: المهيمن: الرّقيب الحافظ، يُقال: هيمن الرّجل يهيمن هيمنة، إذا كان رقيبًا على الشّيء، وهو قول الخليل، وأبي عبيدة، قال أبو عبيدة: المهيمن: الشّاهد المصدّق، واحتجّ بقول حسّان:

إنَّ الكِتَابَ مُهَيمِنٌ لنَبيِّنَا *** والحَقُّ يَعرِفُه ذَوو الأَلبابِ[3]

2) ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾: الهوى: مَقصورٌ: هَوى النَّفس، والعِشقُ يكون في الخير والشَّرِّ، وإرادة النَّفس، والجمعُ الأَهواء، ويُقالُ: هوى يَهوي، هَوِيًّا: سقط إلى أسفَل، وانهَوى مثلُه، وكأنَّ الَّذي يتَّبعُ هَواهُ يَسقُطُ إلى أسفَل، وخاصَّةً إذا تركَ شَرعَ الله، واتَّبع هواه؛ كما هي دلالة قوله في الآية الكريمة: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ [القمر: 3]، وقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الأنعام: 71]، أي: ذَهَبَت بهواه وعَقله، أو استَهامَته وحَيَّرته، أو زَيَّنَت له هواه[4]، "والأصل أنّ الهوى ميل النّفس إلى الشّهوة، ويُقال ذلك للنّفس المائلة إلى الشّهوة، وقيل: سمّي بذلك؛ لأنّه يهوي بصاحبه في الدّنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية"[5]، والنّفس إذا خلّيت وطبعها، تميل إلى الشّرّ لا إلى الخير؛ لأنّها أمّارة بالسّوء، وعلى الثّاني المصدر بمعنى المفعول، أي: مهويها، كما في قوله:

هَوايَ مَعَ الرَّكبِ اليَمَانِينَ مُصعِدٌ *** جَنِيبٌ وجُثمَاني بِمَكَّةَ مُوثَقُ"[6].

وفي بردة البوصيريّ تحذير من غلبة سلطان الهوى على النّفس، حيث يقول في أحد أبياتها:

فاصرِفْ هَواهَا وحاذِرْ أَن تُوَلِّيَهُ *** إنَّ الهَوَى ما تَوَلَّى يُصْمِ أَو يَصِمِ[7].

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/1765.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/57.
(3) الواحديّ، الوسيط: 2/195.
(4) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (هوى).
(5) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (هوى).
(6) أفندي، عَصيدة الشُّهدة، وشرح قصيدة البردة، ص: 83.
(7) الغزّي، الزّبدة في شرح البردة، ص: 54.

الـشّـرعـة ما ورد به القرآن لتنظيم أحوال الإنسان في كلّ زمان

3) ﴿شِرۡعَةً﴾: الشَّرعُ: نهجُ الطَّريق الواضح، يُقالُ: شَرَعتُ له طريقًا، والشَّرعُ: مَصدَر، ثمَّ جُعِلَ اسمًا للطَّريق النَّهج؛ فقيل له: شِرعٌ، وشَرعٌ، وشريعةٌ، واستُعيرَ ذلك للطريقة الإلهيَّة، كما في هذه الآية الَّتي معنا في قوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾[1]، والشِّرعَة: ما ورد به القرآن، والمِنهاجُ: ما وَرَدَت به السُّنَّة[2]، قال الأزهريّ رحمه الله: قال الله ﷻ: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾، أي: طريقًا واضحًا أمرنا بالاستقامة عليه، والعرب تقول: شرع السّالخ إهاب الذّبيحة، إذا شقّ بين الرِّجلين وفتحه.

والشّرع هو: الإبانة، والله تعالى هو الشّارع لعباده الدّين، وليس لأحدٍ أن يشرّع فيه ما ليس منه، إلّا أن يشرّع نبيٌّ بأمر الله تعالى، فإنّ شَرع النّبيّ هو شرع الله (ﷺ)،[3] وفي قوله تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ [الشّورى: 13] إشارةٌ إلى الأصول الَّتي تتساوى فيها المِلَلُ، فلا يَصِحُّ فيها النَّسخ كمعرفة الله تعالى، وأركان الإيمان[4]، "وقيل: الشّريعة الطّريقة، ثمّ استُعيرَت للطّريقة الإلهيّة المؤدّية إلى الدّين، والمنهاج: الطّريق الواضح، وقال بعضهم: الشّريعة والمنهاج عبارتان عن معنى واحد، والتّكرير للتّأكيد، والمراد بها الدّين، وقال آخرون: بينهما فرق لطيف، وهو أنّ الشّريعة هي الّتي أمر الله بها عباده، والمنهاج الطّريق الواضح المؤدّي إلى الشّريعة"[5].

4) ﴿وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾: النَّهج: الطّريق الواضح، ونَهَجَ الأمر وأَنهَجَ: وَضَحَ، ومَنهَج الطَّريق ومِنهاجه، قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾[6] وهي الآية الَّتي معنا، والمرادُ به هنا الطَّريق

(1) الرّاغب، المفردات: (شرع).
(2) قاله ابن عبّاس ﷺ. ينظر: الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/309.
(3) الإمام الشّافعيّ، تفسير الإمام الشّافعيّ: 2/757.
(4) الرّاغب، المفردات: (شرع).
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 3/126.
(6) الرّاغب، المفردات: (نهج).

الواضح، "ونهج الطّريق: أبانه، ونهجه أيضًا: سلكه، وبابهما قطع. والنّهج بفتحتين: تتابع النّفس. وفي المصباح: ونهج الطّريق ينهج بفتحتين: وضح واستبان، وأنهج بالألف مثله. ونهجته وانتهجته: أوضحته، يُستعملان لازمَيْن ومتعدّيَين"[1].

5) ﴿أُمَّةَ﴾: الأُمَّة كلُّ جماعة يجمعُهم أمرٌ ما، إمَّا دينٌ واحد، أو زمانٌ واحد، أو مكانٌ واحد، سواءٌ أكان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أم اختيارًا، وجمعُها: أُمَم، ولكلمة أُمَّة معانٍ عديدة، منها: أوّلًا: الصّنف الواحد، والطَّريقة الواحدة، وقد تكون في الضَّلال والكُفر، كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]، وقد تكون في الإيمان، كما في قوله تعالى في الآية الَّتي معنا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

ثانيًا: جماعة يتخيَّرون العلمَ والعملَ الصّالح، يكونون أُسوَةً لغيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104].

ثالثًا: دينٌ مُجتَمع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزّخرف: 22].

رابعًا: حِين منَ الزَّمن، كما قالَ تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45].

خامسًا: النَّموذج القدوة القائم مقامَ جماعة في عبادة اللّه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النّحل: 120].

سادسًا: جماعةٌ منَ النَّاس، كما في قوله تعالى: ﴿*لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: 113][2]، وإن كان هناك مَن جعلَها بمعنى الطَّريقة الواحدة، وتقديرُه: ذو طريقة واحدة[3]، ولكن ترك الإضمار أَولى.

6) ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾: بَلَوتُه: اختبرتُه، ويُقالُ عنِ الثّوب: بَلِيَ؛ أي: خَلُقَ، كأنِّي أَخلَقتُه من شدَّة اختباري له، واختبارُ اللّه تعالى للعباد تارةً بالمَسارِّ ليشكروا، وتارةً بالمَضَارِّ ليصبروا[4]، "وسمّي الغمّ بلاء من حيث أنّه يُبلي الجسم، وسمّي التّكليف بلاء من أوجه: الأوّل: أنّ التّكاليف كلّها مشاق على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاء، والثّاني: أنّ

(1) درويش، إعراب القرآن: 2/493.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمّ).
(3) وهو قول الزَّجّاج، معاني القرآن: 1/458.
(4) الرّاغب، المفردات: (بلى).

التّكاليف اختبارات، وكذلك قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ [البقرة: 155]، قال ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾، ونحو ذلك، والثّالث: أنّه لمّا كان اختبار الله تعالى لعباده تارة بالمسارّ ليشكروا، وتارة بالمضارّ ليصبروا، صارَتِ المنحة والمحنة جميعًا بلاء، فالمحنة: مقتضية للصّبر، والمنحة: مقتضية للشّكر"[1].

7) ﴿فَٱسْتَبِقُواْ﴾: (سَبَقَ) السِّين والباء والقاف أَصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على التَّقديم، يُقالُ: سَبَقَ يَسبِقُ سَبقًا[2]، والاستباقُ: التَّسابقُ، قال تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: 17]، ويُستعارُ السَّبقُ لإحراز الفَضلِ والتَّبريز، وفيه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة: 10]، أي: المُتقدِّمونَ إلى ثواب الله وجنَّته بالأعمال الصَّالحة[3]، ومنه الآية الَّتي معنا في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾، والمعنى في الآية: " أي: فبادروا إلى عملها قبل أن تعجزوا عنها بموت أو هرم أو مرض"[4]، وفي نفس الآية من سورة البقرة، وهي قوله: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾ [البقرة: 148]، قال ابن عبّاس: يقول: تنافسوا فيما رغّبتكم فيه منَ الخير، فلكلٍّ عندي ثوابُه، وقال الزّجّاج: أي: فبادروا إلى القبول منَ الله ﷻ"[5].

8) ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: نبأ: النُّون والباء والهمزة، قياسُه الإتيانُ من مكانٍ إلى مكان، يُقالُ للَّذي يَنبَأ من أرض إلى أرض: نابِئٌ. وسَيلٌ نابِئٌ: أتى من بلدٍ إلى بلد. ورَجُلٌ نابِئٌ مثله. ومن هذا القياس النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّه يأتي من مكان إلى مكان، والمُنبِئُ المُخبِرُ، وأَنبَأته ونَبَّأته، والنَّبأةُ: الصَّوتُ، وهذا هو القياس؛ لأنَّه الصَّوت يجيء من مكان إلى مكان، ومَن هَمَزَ النَّبيَّ، أي: قال: النَّبيءُ؛ فلأنَّه أنبأَ عنِ الله تعالى[6]، والمعنى: "فيخبركم بما لا تشكّون معه منَ الجزاء الفاصل بين محقّكم ومبطلكم، وعاملكم ومفرّطكم في العمل"[7]، ودلالة ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ تتّصل مباشرة في بناء الجملة بقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، وذلك "منَ الدِّين والفرائض والسُّنن، يعني: إنَّ الأمر سيؤول إلى ما يزول معه الشُّكوك، بما يحصل منَ اليقين"[8].

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/185.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبق).
(3) الرّاغب، المفردات: (سبق).
(4) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية، ص: 395.
(5) الواحديّ، الوسيط: 1/231.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5/385.
(7) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/452.
(8) الواحديّ، الوجيز: 1/322.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنـــزال الـقـرآن تـتـمّـة للكتب الـسّـــوابـــق، وشـــريـــعـــة للالتزام والتّميّز والـــعـــمـــل للحسنيين

شرع بيان الله في هذه الآية الكريمة في ذكر القرآن الكريم الَّذي أَنزلَه على عبده ورسولِه الكريم محمَّدٍ ﷺ بالصِّدق الَّذي لا ريب فيه، أنَّه من عند الله تعالى، مصدِّقًا للكُتُب السَّابقة عليه بما فيها من توحيد الله وذكره، وحاكمًا وشاهدًا وأمينًا عليها، فاحكُمْ يا محمَّدُ ﷺ بين النَّاس جميعهم بما أنزلَ الله إليك في هذا الكتاب العظيم، ولا تَنصرِف عنِ الحقِّ الَّذي أمرَكَ الله به إلى أهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء، فلكُلٍّ جعلنا منكم سبيلًا وسُنَّةً، ولو شاء الله لجمع النَّاس كلَّهم على دينٍ واحد، وشريعة واحدة، لا يُنسَخُ شيءٌ منها، ولكنّه تعالى شَرَعَ لكلِّ رسول شريعةً على حِدَة، ثمَّ نسَخَها أو بعضَها برسالة الآخر الَّذي بعده، حتَّى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمَّدًا ﷺ ، وهذا الاختلافُ في الشَّرائعِ لِيختبرَ الله عباده فيما شرع لهم، فَيُثيبُهم على طاعته ويعاقبُهم على معصيته، ثمَّ ندب الله عبادَه إلى المسارعة إلى الخيرات، والمبادرة إليها، فالمرجعُ إليه ﷻ والحسابُ بين يديه[1]، وهو تعالى لم يجعلكم أمّة واحدة؛ ليكون لكلّ أمة حسابها، كما يكون لكلّ فرد حسابه، ولذلك أدعوكم للاستباق لإدراك الخيرات الّتي دعيتم إليها في كتب الله الّتي بين أيديكم، وأن تبادروا إلى تحصيلها قبل أن تفلت منكم، فلا يبقى في أيديكم إلّا الحسرة والنّدم، وإلى الله المآل، وعند الله تجتمع الخصوم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

التّعبير بإنزال الكتاب عوضًا عنِ التّعبير بإرسال الرّسول في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾:

نلاحظ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أنّه ﷻ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/62 - 63.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1110.

لم يقل: (وقفّينا على آثارهم بمحمّد) أو نحو ذلك، بل نجده تعالى يبّين أنّه أنزل الكتاب، وفي ذلك إشارة إلى معنى استقلاله عن سائر النّبوّات، وأنّه لم يكن فيه تبعيّة لغيره منَ الكتب، بل هو مستقلّ بالمكانة، منفرد بها عمّن سواه من غير تبعيّة لملّة ولا لشخص أيًّا كان نوع هذه التّبعيّة، وأيًّا كان مقدارها، وذكر الكتاب المنزل دون ذكر النّبيّ المرسل صراحة؛ "للإشارة إلى مكانة الشّريعة الإسلاميّة، وكتابها الكريم الباقي، والخالد إلى يوم القيامة، وهو معجزة النّبيّ ﷺ، وإذا ذكرها سبحانه في مقام الإكبار والتّفخيم يكون بيانًا لمكانة الرّسالة المحمديّة، وبيان أنّ حجّتها أقوى الحجج، وأشدّها تثبيتًا، وأبقاها في هذا الوجود[1]، وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إتمامًا لترتيب نزول الكُتُب السَّماوية، وتمهيدًا لقوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾.

القرآن معجزة الختام المتفرّدة، ودلالة الكمال المتألّقة المتجدّدة

دلالة الألف واللّام في قوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وأثرها في تجليّة المعنى ودقّته:

وقد ذكر الله ﷻ الكتاب من غير تعريف سوى ذلك، و(أل) كما قال علماء اللّغة: للعهد، وفي ذلك إشارة إلى كماله، أي: أنّه ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الّذي هو جدير باسم الكتاب، بحيث إذا أطلق اسم الكتاب لا ينصرف إلّا إليه؛ لأنّه الفرد الكامل من بين الكتب في هذا الوجود، وقد زاده الله تعالى شرفًا، فنسب الإنزال إليه سبحانه؛ وفي ذلك تأكيد لمنزلته العالية السّامية[2]، سُمِّيَ كتابًا على الإطلاق؛ لحيازته جميع الأوصاف الكماليَّة لجنس الكتاب السَّماويِّ وتفوُّقه على بقية أفراده، وهو القرآن الكريم، فاللَّام فيه للعهد[3]، وزيد تأكيد التّشريف، فجاء قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُتعلِّقًا بمحذوفٍ وقعَ حالًا

تخصيص القرآن؛ بكونه المتفرّد الكامل من بين الكتب في هذا الوجود

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2223.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2223.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/66.

مُؤكِّدةً منَ (الكتاب)؛ أي: مُتلبِّسًا بالحقِّ والصِّدق[1]، وقال آخرون: وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بيانٌ لقوله السَّابق (لِمَا)، واللَّام هنا للجنس، إذِ المرادُ هو الكتاب السَّماويّ، وهو بهذا العنوان جنسٌ برأسه، وإن كان في نفسه نوعًا مخصوصًا من مدلول لفظ الكتاب، وعن هذا قالوا: اللَّام للعهد، إلَّا أنَّ ذلك لا ينتهي إلى خصوصيَّة الفرديَّة بل إلى خصوصيَّة النَّوعيَّة الَّتي أَخصُّ من مُطلَق الكتاب، وهو ظاهر، ومنَ الكتاب السَّماويِّ أيضًا حيثُ خُصَّ بما سوى القرآن[2]، وفي حاشية شيخ زاده: "واللّام في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للجنس أو بمعنى الاستغراق على أن يكون القرآن مستثنى منه بدليل العقل، كما أنّ ذاته تعالى مستثنى من عموم الشّيء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٩﴾ [البقرة: 109]، فإنّه شيءٌ بمعنى شائي، كما أنّ سواه شيءٌ بمعنى مَشيءُ الوجود، قال:

فَسَمِّ اللّهَ شَيئًا لا كَأشيا ***وذَاتًا عَن جِهاتِ السِّتِّ خالِ[3].

دلالة قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ في بيان تصديق القرآن لما قبله:

وكان قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ حالًا منَ (الكتاب)، والمعنى: حالَ كونِه مُصدِّقًا لمَا تقدَّمه[4]، ويمكنُ أن يكون حالًا منَ الضَّمير في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾[5]، إمَّا من حيث إنَّه نازلٌ حسبما نُعِتَ فيه، وإمّا من حيث إنَّه موافقٌ له في القصص والمواعيد، والدَّعوة إلى الحقِّ، والعدل بين النَّاس، والنَّهي عنِ المعاصي والفواحش، وأمَّا ما يتراءى من مُخالفته له في بعض جزئيات الأحكام المتَغيِّرة، بسببِ تغيُّر الأَعصار، فليسَت بمخالفةٍ في الحقيقة؛ بل هي موافقةٌ

نسخ المتأخّر للمتقدّم من سنن الله في تهييء الأنفس لقبول الإرسال الخاتم

(1) العكبريّ، التبيان: 1/217.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/218.
(3) زاده، حاشية على البيضاويّ: 3/534.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/66.
(5) العكبريّ، التبيان: 1/217، وهو الَّذي يُقرِّره العكبريّ دون الأوَّل، إذ يرى أنَّه لا يكون حالاً منَ الكتاب، إذ يكونُ حالان لعاملٍ واحد. ولكن يُجابُ عن هذا بأنَّ الأوَّلَ الحالُ فيه محذوفٌ مُقدَّر - كما سبق - .

لها من حيثُ إنَّ كلًّا من تلك الأحكام حقٌّ بالإضافة إلى عصره، مُتضمِّنٌ للحكمة الَّتي يدور عليها أمر الشَّريعة، وليس في المُتقدِّم دلالةٌ على أبديَّة أحكامه المنسوخة حتَّى يخالفَه النَّاسخ المتأخِّر، وإنَّما يدلُّ على مشروعيتها مُطلقًا من غير تعرُّض لبقائها وزوالها؛ بل هو ناطقٌ بزوالها لِمَا أنَّ النُّطق بصحَّة ما ينسخُها نُطقٌ بنسخها وزوالها[1].

دلالة قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾؛ للتّعبير عن شهادته عمّا سبق من إرسالات:

معنى المهيمن الشّهيد والقاضي والمؤتمن على ما قبله منَ الكتب

وقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، أي: رقيبًا على سائر الكتُب، يشهدُ لها بالصِّحة والثَّبات[2]، وقيل: "مُؤتمنًا على القرآن، وشاهدًا ومصدِّقًا، وقال آخرون: القرآن أمين على الكتب، فيما إذا أخبرنا أهل الكتاب في كتابهم بأمرٍ، إن كان في القرآن فصدقوا وإلّا فكذبوا"[3]، ولفظ ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ حالٌ، وأصلُ مُهَيمِن: مَيمِن؛ لأنَّه مُشتقٌّ منَ الأمانة، فهو أمينٌ[4]، ومُؤتَمَن[5]، ولأنَّ المهَيمِنَ: الشَّاهد[6]، والأَظهرُ أنَّ الهاء في المُهيمِن أصليَّةٌ، وأنَّ فِعلَه بوزن (فَيعَلَ) كسَيطَر، ولكن لم يُسمَع له فعلٌ مُجرَّد، فلم يُسمَع (هَمَنَ)، ويمكنُ أن لا يكون لهذا الفعل نظيرٌ إلَّا (هَينَمَ) إذا (دعا) أو (قرأ)[7]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ معانٍ عديدة، منها: شاهِد، وأمِين، ومُؤتَمَن، وقاض، ودالّ، ومُصدِّق، ورقيب، وحافظ[8]، وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال للرّجل إذا حفظ الشّيء وشهِده: "قد هَيمَنَ، يُهَيمِنُ هَيمَنَةً"،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/67.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/378.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/512.
(5) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/168.
(6) العكبريّ، التبيان: 1/217.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/221.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 6/266 - 268، والزّجّاج، معاني القرآن: 2/180.
قال ابن كثير: "و هذه الأقوال كُلُّها متقاربة المعنى، فإنَّ اسمَ (المُهيمِن) يتضمَّنُ هذا كلَّه، فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كلّ كتاب قبله"، ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/62.

قال ابن عبّاس: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾، أي: شهيدًا عليه.. وقال عبد الله بن الزّبير: المهيمن: القاضي على ما قبله منَ الكتب[1]، ومعنى هيمنة القرآن وأمانته، ما قال ابن جريج: "القرآن أمين على ما قبله منَ الكتب، فما أخبر أهل الكتاب عن كتابهم، فإن كان في القرآن صدقوا وإلّا فكذبوا، وقال سعيد بن المسيّب والضّحّاك: قاضيًا، وقال الخليل: رقيبًا وحافظًا، والمعاني متقاربة، ومعنى الكلّ: أنّ كلّ كتاب يشهد بصدقه القرآن، فهو كتاب الله تعالى، وإلّا فلا"[2].

دلالة فعل الأمر على وجوب الحكم بما في القرآن بين أهل الأديان:

القرآن مُشتمِلٌ على جميع الأحكام الشَّرعيَّة الباقية في الكُتُب السّماويّة وزيادة

قوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: إذا كان القرآنُ العظيم - كما ذُكر من كونه مُصدِّقًا لما قبله منَ الكُتُب المُنزَّلة على الأُمم مُهيمنًا عليها - فاحكُم يا محمَّدُ ﷺ بين أهل الكتابين عند تحاكُمهم إليك: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾، أي: بما أنزله إليك، فإنَّه مُشتمِلٌ على جميعِ الأحكام الشَّرعيَّة الباقية في الكتب الإلهيَّة، وتقديمُ (بينَهم) للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم، ووضعُ الموصول في (بما) مَوضِعَ الضَّمير؛ للتَّنبيه على علِّيَّة ما في حَيِّز الصِّلة للحُكم، والالتفاتُ بإظهار الاسم الجليل (الله)؛ لتربية المهابة، والإشعار بعلَّة الحُكم[3]، قال بعض العلماء هذه ناسخة لقوله: ﴿أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ [المائدة: 42]، وقد تقدّم ذكر ذلك، وقال الجمهور: إنّه ليس بنسخ، وإنّ المعنى: فإن اخترت أن تحكم ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾، ثمّ حذّر تعالى نبيّه من اتّباع أهوائهم، أي: شهواتهم وإرادتهم الّتي هي هوى ووسوسة للنّفس، والنّفس أمّارة بالسّوء فهواها مردّ لا محالة[4].

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/1765.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/57.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/68.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/200.

دلالة أسلوب النّهي عنِ اتّباع الأهواء المضطربة:

تضمين معنى العدول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، أي: أهواءَ اليهود، والمقصود منه النَّهي عنِ الحُكم بغير حُكم الله، إذا تحاكموا إليه، إذ لا يجوزُ الحكمُ بغيره، ولو كان شريعةً سابقة؛ لأنَّ نُزولَ القرآن مُهَيمِنًا أبطَلَ ما خالفَه، ونُزولَه مُصدِّقًا أيَّدَ ما وافقه، وزَكَّى ما لم يُخالفه[1]، وقوله تعالى: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾، أي: الَّذي لا مَحيدَ عنه، و(عن) في ﴿عَمَّا﴾ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾ على تضمين معنى العدول ونحوه؛ كأنَّه قِيلَ: ولا تَعدِلْ عمَّا جاءك منَ الحقِّ مُتَّبعًا أهواءَهم، ويمكنُ أن تتعلَّقَ (عن) بمحذوفٍ وقعَ حالًا من فاعِله؛ أي: لا تَتَّبع أهواءَهم عادلًا عمَّا جاءك، ووضعُ الموصول في (بما) مَوضِعَ ضمير الموصول الأوَّل في ﴿بِمَآ أَنزَلَ﴾؛ للإيماء بما في حيِّز الصِّلة من مجيء الحقِّ إلى ما يُوجِب كمالَ الاجتباب، عنِ اتِّباع الأهواء[2].

التّشبيه في قوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾، وأثره في توضيحِ المعنى:

الاستئناف بدعوة أهل الكتاب للانقياد لحكم الله، وما يزخر به القرآن من أحكام خالدة

قوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ فيها تشبيه؛ حيث أنّ الشّرعة هي الطّريقة إلى الماء، شبّه بها الدّين؛ لكونه سبيلًا موصلًا إلى ما هو سبب للحياة الأبديّة، كما أنّ الماء سبب للحياة الفانية[3].

أفادَ الاستئنافُ ضرورةَ ائتمار أهل الكتُب السَّابقة بالقرآن عقيدةً وشريعةً، وهذا تعليلٌ للنَّهي، أي: إذا كانت أهواؤهم في متابعة شريعتهم أو عوائدهم، فَدَعْهُم وما اعتادوه، وتمسَّكوا بشرعكم، وهو كلامٌ مُستأنَفٌ جيءَ به لحمل أهل الكتابين من مُعاصريه ﷺ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/222.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/68.
(3) صافي، الجدول: 6/372.

الانقياد لحكمه بما أنزل الله منَ القرآن الكريم، ببيان أنَّه هو الَّذي كُلِّفوا العملَ به دونَ غيره منَ الكتابين، وإنَّما الَّذين كُلِّفُوا العملَ بهما مَن مضى قبل نسخهما منَ الأُمم السَّالفة.

علّة الجمع بين قوله: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾، وقوله: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾:

الخطاب في قوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ﴾ للأمم الثّلاث، أمّة موسى، وأمّة عيسى، وأمّة محمّد ﷺ؛ لأنّ الآيات السّابقة واللّاحقة فيهم، و: الشّرعة: عبارة عن مُطلَق الشّريعة، والمنهاج: عن مكارم الشّريعة، فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ [الشّورى: 13] إلى قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: 13]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾؟ [الأنعام: 90] فالجواب: أنَّ الثّانية مصروفة إلى ما يتعلّق بأصول الدّين، والأولى بفروعه، وقال الرّاغب في الجمع بين الآيتين: الّذي استوى فيه الشّرائع هو أصل الإيمان والإسلام، أعني التّوحيد والصّلاة والزّكاة والصّوم، فإنّ أصول هذه الأشياء لا ينفكّ منها شرع بوجه، وأمّا الّذي ذكر أنّه تفرّد كلّ واحد منَ الأنبياء به، ففروع العبادات من كيفيّاتها وكمّيّاتها، فإن ذلك مشروع على حسب مصالح كلّ واحد، وعلى مُقتضَى الحكمة في الأزمنة المختلفة[1].

التّوافق بين الدّيانات السّماويّة في الأصول، واختلافها في الفروع

أسلوب الالتفات، وأثره في التّعميم، واستعمال التّغليب في الخطاب:

وورد الخطاب بطريق الالتفات للنَّاس كافَّةً لا للموجودينَ خاصَّةً؛ بل للماضين أيضًا بطريق التَّغليب، واللَّام في ﴿لِكُلّٖ﴾ مُتعلِّقةٌ بـ﴿جَعَلۡنَا﴾ المتعدِّي لواحد، وهو إخبارٌ بـ(جعلَ) ماضٍ لا إنشاء، وتقديمُها عليه للتَّخصيص[2]، ويمكنُ أن تكون ﴿جَعَلۡنَا﴾ مُتعدِّيةً إلى

مفعول المشيئة - وهو جواب (لو) الامتناعيّة - محذوفٌ بدلالة الجزاء عليه

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/272.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/68.

مفعولين؛ بجعلها بمعنى (صيَّرنا)[1]، ولفظ ﴿مِنكُمْ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ صفةً لمَّا عوّضَ عنه تنوينُ (كلٍّ)، ولا ضَيرَ في توسُّط ﴿جَعَلْنَا﴾ بين الصِّفة والموصوف[2]، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 14]، والمعنى: لكلِّ أُمَّةٍ كائنةٍ منكم أيُّها الأمم الباقية والخالية جَعَلنا؛ أي: عيَّنَّا، ووضَعنا شرعةً ومنهاجًا خاصَّين بتلك الأمَّة، لا تكادُ أمَّةٌ تتخطَّى شرعيَّتَها الَّتي عُيِّنَت لها، فأُمَّة موسى ﷺ شِرعتُهم التَّوراة، وأُمَّة عيسى ﷺ شِرعتُهم الإنجيل، وأمَّا أنتم أيُّها الموجودون فشِرعتُكمُ القرآنُ ليس إلَّا، فآمِنوا به، واعملوا بما فيه[3]، قال القاضي أبو محمّد: وهذا عندهم في الأحكام، وأمّا في المعتقد فالدّين واحد لجميع العالم: توحيد، وإيمان بالبعث، وتصديق للرّسل، وقد ذكر الله تعالى في كتابه عددًا منَ الأنبياء شرائعهم مختلفة، ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: 90]، فهذا عند العلماء في المعتقدات فقط، وأمّا أحكام الشّرائع فهذه الآية هي القاضية فيها ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾[4]، ويؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، والمعنى: أي: مُتَّفِقةً على دينٍ واحدٍ على مرِّ الدُّهور وكرِّ العصور من غير اختلافٍ بينكم وبين مَن قبلكم مِنَ الأمم في شيءٍ من الأحكام الدِّينيَّة، ولا نَسخ ولا تَحويل، ومفعول المشيئة - وهو جواب (لو) الَّذي هو حرف امتناعٍ لامتناع - محذوفٌ تَعويلًا على دلالة الجزاء عليه، أي: ولو شاء الله أن يجعلكم أُمَّةً واحدةً لجعلَكم أمَّةً واحدة[5]، والشِّرعة والشَّريعة: الماء الكثير من نَهرٍ أو وادٍ، يُقالُ: شريعةُ الفُرات، وسُمِّيتِ الدِّيانةُ شريعةً على التَّشبيه؛ لأنَّ فيها شفاء النُّفوس وطهارتها، والعربُ تُشبِّه بالماء وأحواله كثيرًا[6].

ويمكن أن يكون تشبيه الطَّريقة إلى الماء بالدِّين؛ لكونه سبيلًا مَوصولًا إلى ما هو سببٌ للحياة الأَبديَّة، كما أنَّ الماءَ سببٌ للحياة الفانية.

---

(1) العكبريّ، التبيان: 1/217.

(2) ويرى العكبريّ خلاف ذلك فيقول: "ولا يجوز أن يكون منكم صفةٌ لكلّ، لأنَّ ذلك يُوجِبُ الفصلَ بين الصّفة والموصوف بالأجنبيّ الَّذي لا تشديدَ فيه للكلام، ويُوجبُ أيضًا أن يفصلَ بين جعلنا ومعمولها، وهو (شِرعة)، وإنّما يتعلَّقُ بمحذوفٍ تقديره: أعني.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/68 - 69.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/200.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/69.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/223.

والمنهاج: الطّريق الواضح في الدِّين، مِن نَهجَ الأمرُ إذا وَضَحَ[1].

تعلّق المعنى بمحذوف يتطلّبه السّياق في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾:

حكمة الله البليغة في الاختلاف الحاصل بين الخليقة

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ يَستدعيه النِّظام؛ أي: ولكن لم يشأ ذلك، أي: أن يجعلَكم أمَّةً واحدة؛ بل شاء ما عليه السُّنَّة الإلهيَّة الجارية فيما بين الأمم؛ ليُعاملَكم معاملةَ مَن يَبتليَكم ﴿فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ منَ الشَّرائع المختلفة، المناسبة لأعصارها وقُرونها، هل تعملون بها، مُذعِنين لها، مُعتقِدين أنَّ اختلافَها بمقتضى المشيئة الإلهيَّة المبنيَّة على أساس الحِكَم البالغة، والمصالحِ النّافعة لكم في معاشِكم ومَعادِكم، أو تَزيغون عنِ الحقِّ، وتتَّبعونَ الهوى، وتستبدلون المَضرَّةَ بالجَدوى، وتشترون الضَّلالة بالهدى؟. وبهذا اتَّضحَ أنَّ مَدارَ عدم المشيئة المذكورة ليس مجرَّدَ الابتلاء فحسْب؛ بلِ العُمدةُ في ذلك إلى ما أُشيرَ إليه مِنَ انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتُهم، معاشًا ومَعادًا، كما يُنبئُ عنه قوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾[2].

المجاز في لفظ الاستباق، وأثره في جلاء المعنى في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾:

الاستعارة المكنيّة ودورها في تأكيد المسارعة للنّفع، والمبادرة للخيرات

جاء قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ تفريعًا على قوله: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾؛ لأنَّ بذلك الاستباق: التَّسابق، وهو هنا مجازٌ في المنافسة؛ لأنَّ الفاعلَ للخير لا يَمنعُ غيره من أن يفعلَ مِثلَ فعله أو أكثَر، فشابه التَّسابق، والفعلُ (استَبِقوا) ضُمِّنَ معنى خذوا، أوِ ابتَدِروا، ولذلك عُدِّيَ إلى الخيرات، وحقُّه أن يُعدَّى بـ(إلى)، كقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: 21][3]، وفي هذا الفعل

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/69. وقد تقدَّم بيان الشِّرعة، والمنهاج في فِقرة: شرح المفردات، لكنَّ إيرادَها هنا، لبيان التَّشبيه، وربطه المحكم بالسّياق القرآنيّ، وإظهار البلاغة القرآنيَّة الفائقة.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/69 - 70.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/225.

ومفعوله تأكيدُ التَّرغيب في الإذعان للحقِّ، وتشديدُ التَّحذير عَنِ الزَّيغِ، ما لا يَخفى على مُتدبِّر، وقوله: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾، أي: بادروا فعل الخيرات، وفيه استعارة مكنيّة؛ حيث شبّههم بالمتسابقين على ظهور الخيل، وحذف المشبّه به وهو الخيل، وجاء بشيء من لوازمه، وهو استبقوا على سبيل الاستعارة المكنيّة؛ لأنّ كلّ واحد ينافس صاحبه في السّبق؛ لبلوغ الغاية المقصودة[1].

أثر حرف الفاء في توجيه المعنى من قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾:

استباق الخيرات مطلوب الله من كلّ الأمم، وهي المهمّة الأساسيّة لبني آدم جميعًا

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾ "ما هو مترتّب عليه بالفاء، يعني أنّه تعالى لمَّا خاطب الأمم منَ المسلمين، واليهود، والنّصارى، وغيرهم، بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً﴾، أي: شريعة بحسب ما تقتضيه الأوقات منَ المصالح؛ لنختبركم أيّكم يعتقد أنَّها حكمة منَ الله تعالى، وإن خفي عليه وجه الحكمة فيستبق إلى ما شرعه الله تعالى في كلّ وقت، وأيّكم لا يتبع هواه، واتّجه لهم أن يسألوا: ما تلك الحكمة؟، ومَن يعلم حقيقتها؟ فأجيبوا: إذا ما رجعتم إلى الله تعالى في دار الجزاء، فيجازيكم إمّا بالثّواب أو بالعقاب؛ ليفصل بين المحقّ والمبطل، وبين العالم والمفرّط، فحينئذ تعلمون وجه الحكمة فيه، ولا تشكُّون فيه"[2].

الاستئناف المسوقُ مَساقَ التَّعليل لاستباق الخيرات في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾:

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ مَساقَ التَّعليل لاستباق الخيرات بما فيه منَ الوَعد والوَعيد[3]، وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ من ضمير الخطاب في ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾، وفي العامل فيه وجهان:

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 6/214.
(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/272.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/70.

أحدُهما: المصدر المضاف؛ لأنَّه في تقدير: (إليه تُرجعون جميعًا)، والضَّمير المجرور فاعلٌ في المعنى، أو قائمٌ مقام الفاعل، والثَّاني: أن يعملَ فيه الاستقرارُ الَّذي ارتفع به ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾، أوِ الضَّميرُ الَّذي في الجارّ[1]، وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾، أي: فيفعلُ بكم منَ الجزاء الفاصل بين المُحقِّ والمُبطل، ما لا يَبقى لكم معه شائبةُ شكٍّ فيما كنتُم فيه تختلفون في الدُّنيا، وإنَّما عبَّرَ عن ذلك بما ذَكَرَ لوقوعه موقعَ إزالة الاختلاف الَّتي هي وظيفة الإخبار[2]،"ثمّ أخبر تعالى بأنّه لو شاء لجعل العالم أمّة واحدة، ولكنّه لم يشأ؛ لأنّه أراد اختبارهم وابتلاءهم فيما آتاهم منَ الكتب والشّرائع... فليس لهم إلّا أن يجدّوا في امتثال الأوامر، وهو استباق الخيرات، فلذلك أمرهم بأحسن الأشياء عاقبة لهم، ثمّ حثّهم تعالى بالموعظة والتّذكير بالمعاد في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا﴾، والمعنى: فالبدارَ البدارَ، وقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾، معناه: يظهر الثّواب والعقاب، فتخبرون به إخبار إيقاع، وإلّا فقد نبّأ الله في الدّنيا بالحقّ فيما اختلفتِ الأمم فيه، قال القاضي أبو محمّد: وهذه الآية بارعة الفصاحة، جمعت المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة، وكلّ كتاب الله كذلك، إلّا أنّا بقصور أفهامنا، يَبِين في بعض لنا، أكثر ممّا يَبِين في بعض"[3].

الـــرّجـــوع إلى الله يوم المعاد؛ لمحاسبة العباد، وتـمـيـيـز أهـل الـغـيّ مـن أهل الرّشاد

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(بين يَدَيه) و(تقدَّمَه) و(قَبلُ)

في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: (قبلُ): يُستعملُ في التَّقدُّم والمتَّصل والمُنفَصِل، ويُضادُّه (بَعدُ)، ويمكن أن يُستعمَلا في التَّقدُّم

الاتّـســاع في اسـتـعـمـال اللّفظ في القرآن دليل عـلى ثراء اللّغة العربيّة، واسـتـيـعـابـهـا للمعاني

(1) العكبريّ، التبيان: 1/217.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/70.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/201.

المتَّصل، ويُستعمَلُ (قَبلُ) في أربعة أَوجهٍ: الأوَّل: في المكان بحسبِ الإضافة، كأن يُقالُ: بغدادُ قبلَ الكوفة، وذلك للخارجِ من أصبهانَ إلى مكَّة، ويُقال: الكوفة قبلَ بغداد، للخارجِ من مكَّةَ إلى أصبهان.

الثَّاني: في الزَّمان، كما في قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: 91].

الثَّالث: في المَنزِلة، نحو: عبد الملك قَبل الحجَّاج.

الرَّابع: في التَّرتيب الصِّناعيّ، كما في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: 130][1].

والتَّقدُّمُ مأخوذٌ منَ القَدَم، أي: قَدَم الرِّجل، وجمعُه: أَقدام، قالَ تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: 11]، وبه اعتُبِرَ التَّقدُّم والتَّأخُّر، والتَّقدُّم على أربعة أَوجه - كما تقدَّم آنفًا في لفظ (قَبلُ) - ويُقالُ: حديثٌ وقديمٌ، وذلك باعتبار الزَّمانين، وإمَّا بالشَّرف، نحو: فلانٌ مُتَقدِّمٌ على فلان، أي: أَشرفُ منه، وإمّا لا يَصِحُّ وجودُ غيره إلَّا بوجوده، كقولك: الواحد مُتقدِّمٌ على العدد، بمعنى أنَّه لو تُوُهِّمَ ارتفاعُه لارتفعتِ الأعداد، قال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [المائدة: 80]، وقَدُمْتُ فُلانًا أَقْدُمُه: إذا تقدّمتُه، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [هود: 98][2]، وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَجمعُ معنى (قَبلُ) وتقدَّمَ ذلك أنَّ قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كنايةٌ عن كلا المَعنَيَين، فليستِ الكُتُبُ الَّتي تقدَّمَت بعثةَ رسول الله ﷺ هي بين يديه حسًّا، وإن كانتِ التَّوراة والإنجيل بين يدي القائمين عليهما، وهمُ اليهود والنَّصارى، كلُّ فرقةٍ معها كتابها، ولكنَّ القرآنَ الكريم قد أعلنَ بيانه الجليل بكلام الله الحقِّ المبين أنَّ هذا الكتاب، وهو القرآن، قد أنزلَه على رسوله ﷺ مُصدِّقًا لتلك الكُتُب جميعها، ومُهيمنًا عليها، فكأنَّها كُلَّها بين يديّ رسول الله ﷺ حسًّا؛ تأكيدًا لمعنى التَّصديق والهيمنة، فيجبُ أن يكونَ القرآن هو الموجود بين أيدي النَّاس جميعهم يرجعون إليه في عقيدتهم الصَّحيحة، وشريعتِهمُ الخاتمة النَّاسخة لما سبقها منَ الشَّرائع، ويكون مِن ثمّ مَرجعًا لهم حسًّا ومعنى، وهذا المعنى الدَّقيق لقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لا تحقّقه أيُّ كلمةٍ من (قَبلُ) و(تَقَدَّمَ) على حدة.

(1) الرَّاغب، المفردات: (قبل).
(2) الرَّاغب، المفردات: (قدم).

(المُهَيمِن) وبعض الألفاظ القريبة منه في المعنى والاستعمال:

لفظ (المُهَيمِن) جامعٌ شاملٌ، ولو أَفرَدَ البيانُ الإلـهـيُّ غيره لتقاصر عن بلوغِ المرام منه

انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ هناك جملة منَ الألفاظ ذات الدّلالة القريبة، مثل: (المُؤتَمَنُ) و(الأمينُ) و(الشَّاهدُ) و(الدَّالُ) و(القاضي)، و(المُصدِّقُ) و(الرَّقيبُ) و(الحافظُ)، وعند النّظر فيها نلاحظ ما يلي: تبيَّن لنا معنى كلمة (المُهَيمِنُ) في فقرة: شرحِ المفردات، وكذلك زاد معناها جلاءً في فقرة: الإيضاحِ اللُّغويُّ والبلاغيّ، وظهر لنا على التَّمام والكمال أنَّ كلمة (المُهَيمِن) جامعةٌ شاملةٌ لمعاني كلِّ تلك المفردات السَّابقة فهي متقاربة المعنى، ولكنَّ اسم (المُهَيمِن) يتضمَّنها جميعها بلا استثناء، ولو أُفرد البيان الإلهيّ واحدة منها دون غيرها لقصَّرت أيَّما تقصير في بلوغِ المرام منها، ولأَحدثَت خللًا يَندُّ عنه سياق النَّصِّ القرآنيِّ فيما أراده من معنًى تامٍّ كامل جليل في مكانه الَّذي سيق مِن أجل تحقيقه فيه، قال السّمعانيّ عن قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: والمعاني متقاربة، ومعنى الكلّ أنّ كلّ (كتاب) يصدّقهُ القرآن، ويشهد بصدقه، فهو كتاب الله، وما لا فلا. وقرأ مُجاهِد (ومهيمنًا) بفتح الميم، يعني: مُحَمَّد مُؤيمنًا عليه، وفي الأَثر أَنّ عمر ﷺ قال: إذا دعَوتَ الله فهيمنوا، أَي: أمّنوا " قال الشَّاعر:

أَلَا إِنَّ خَيرَ النَّاسِ بَعدَ مُحَمَّدٍ *** مُهَيمِنُهُ تاليه في العُرفِ والنُّكرِ

أَراد أبا بكر أمينه وحافظه، يتلوه في الأمر بالمَعروف والنَّهي عنِ المنكر"[1].

(لِيَبْلُوَكُمْ) و(ليَختَبرَكُمْ):

لـفـظ الـبـلاءَ أَصـدقُ دلالـةً عـمّـا سيق من أَجله في سياق هـــذه الآيـــة القرآنيّة

انطلاقًا من قوله: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾: خلاصة معنى الفعل ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ أنّه يعني: "ليختبركم فيما خوَّلكم من فضله، ومنحكم من رزقه، فيعلم المطيع له منكم فيما أمره به، ونهاه عنه، والعاصي، ومَنِ

(1) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/43.

المؤدِّي ممّا آتاه الحقّ الّذي أمره بأدائه منه، والمفرِّط في أدائه"[1]، وأمَّا الاختبارُ فيكون بتحميل المكاره والشَّدائد والمشاقّ، وبفعل المحبوب، فلا يُقالُ: ابتلاه بالإنعام عليه، وإنَّما يُقالُ: اختبرَه بالإنعام عليه، وقد يكون البلاء عقوبة، وقد يكون تمحيصًا وتكفيرًا للذُّنوب، وقد يقتضي استخراجَ ما عندَ المُبتلى منَ الطَّاعة والمعصية، والاختبارُ يقتضي وقوعَ الخبر بحاله في ذلك[2]، ومن بيان الفرقِ بين دلالة كلٍّ منَ الكلمتين، يتجلَّى لنا أنَّ البلاءَ أَصدقُ دلالةً فيما سيقَ من أَجله في سياق النَّصِّ القرآنيّ الَّذي يُحدِّثنا عن مشيئة الله تعالى في جَعل النَّاس على مِلَل مختلفة، وشرائعَ مُتباينة، وليس على شرعة واحدة ومنهاجٍ واحد، وهنا عَينُ الشَّدة والمشقَّة والابتلاء، فإلى أيِّ شرعةٍ ينتمون، وفي أيِّ طريق يسيرون، وتحت أيِّ منهجٍ يَستظلُّون، أَيتَّبعون أهواءهم في الاختيار، وهم مُخيَّرون أم يلتزمون المنهاجَ الصَّائبَ الَّذي ارتضاه الله تعالى لهم، والشِّرعةَ الحقَّ الَّتي أمرَهم الله بها ؟

(يُنَبِّئُكُم) و(يُخبِرُكُم):

النَّبأُ أبلغ في الدّلالة عمّا يصدر منَ الله من إخباره بالغيب، وإعلامه بالمستور

انطلاقًا من قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: النّبأ والأنباء لم يردا في القرآن إلّا لما له وقع وشأن عظيم[3]، ومنه اشتقاقُ النُّبوَّة؛ لأنَّ النَّبيَّ مُخبِرٌ عنِ الله تعالى، ويدُلُّ عليه قوله تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص: 3]، وقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النّبأ: 1-2]، فوصفه بالعظمة[4]. والنَّبأُ: خبرٌ ذو فائدة عظيمة، يحصُلُ به علمٌ أو غلبة ظنّ، ولا يُقالُ للخبر في الأَصل نَبَأٌ حتَّى يتضمّنَ هذه الأشياء الثَّلاثة[5]، والخَبَرُ:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/289.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 10.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 1083.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 529.
(5) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

العِلمُ بالأشياء المعلومة من جهة الخبر، وخَبَرتُه خُبرًا وخِبرَةً، وأَخبَرتُ: أَعلمتُ بما حصلَ لي منَ الخبر، والخِبرةُ: المعرفة ببواطنِ الأمور، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ [المجادلة: 13]، أي: عالمٌ ببواطنِ أُموركم[1]، وممَّا سبقَ بيانُه يتَّضحُ أنَّ استخدام البيان الإلهيِّ للفعل (يُنَبِّئُكُم) أَقوى في دلالته المناسبة لسياق النَّصِّ القرآنيِّ منَ الفعلِ (يُخبرُكُم)، فالمقامُ عظيمٌ خطير، وهو المصير الَّذي سيؤولُ إليه مَنِ التزم شِرعة اللّه السَّديدة، ومنهاجه القويم، ومَن لم يلتزم بهما؛ بلِ اتَّبع هواه، وسيكون (النَّبأُ)؛ وهو الإخبار العظيم الشَّأن منَ اللّه ﷻ حينذاك، بما اختلفوا فيه من ذلك كلِّه.

(1) الرَّاغب، المفردات: (خبر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع، سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 9 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-61-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 9 : سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-61-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3504784 بتاريخ 2023/03/27م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»